البرامج الغربية في القنوات التلفازية الفضائية وتأثيرها في الثقافة العربية

ياسين أحمد خلف
أستاذ تكنولوجيا التعليم المساعد
الجامعة التكنولوجية- بغداد
قسم التعليم التكنولوجي

" إننا نبدأ جميعا الان رحلة كبرى أخرى ، ونحن لا نعرف على وجه اليقين الى أين تؤدي بنا هذه الرحلة أيضا ، ولكنني على يقين من ان هذه الثورة ستأخذنا جميعا الى ما هو أبعد ، إن الثورة في مجال الإتصالات قد بدأت لتوها، وسوف تستغرق تطوراتها عقود قادمة "

- بل غيتش -

الخلاصة :

تسير ثورة الاتصالات بخطى سريعة ، واذا علمنا ان هذه الثورة الان لازالت في بداياتها ، نستطيع التنبؤ بما ستؤول عليها في المستقبل القريب اذ تمتلك الشركات الكبيرة في الدول الغربية المتطورة كالولايات المتحدة الامريكية في عصر العولمة صناعة ضخمة للأعلام وجزءا كبيرا من جهدها الاعلامي موجه الى الاقطار النامية ومنها الاقطار العربية من خلال برامج قنواتها التلفازية الفضائية وقد غزت هذه البرامج عالمنا العربي وهنالك خشية في العالم العربي من انصهار وضياع انظمة القيم العربية والاسلامية في التيار الثقافي القادم والذي بدا واضحا بعض جوانب الضياع في التراث الثقافي والغنائي العربي ومن خلالهما التغير في النظرة الى المرأة والجنس والسلوك الانساني .

ان محطات البث الفضائية هذه والتي توجه برامجها مباشرة الى المشاهدين دون الحاجة الى محطات ارضية اثرت وستؤثر على الهوية الثقافية العربية والاسلامية وستغير المفاهيم والقيم اذا لم ندرك ابعادها .

تتناول الدراسة تأثير البرامج الغربية في القنوات التلفازية الفضائية في الثقافاة العربية وسبل مواجهة الاعلام العربي لهذه التأثيرات .

المقدمة

مع ظهور كل تكنولوجيا جديدة ، تتكرر يوتوبيا الوعود، بأسطرتها أحلام الضعفاء والفقراء ،و كان الخطاب الاصطلاحي المعرف (للقرية الكونية) التي إبتدعها مارشال ماكلوهان مفعول السحر حتى بدت و كأنها (المدينة الفاضلة الألكترونية) حيث تسيطر (حضارة الصورة) على العقول ، و

تضحى المعلومة (رأس المال الجديد) ، في قرية الوئام و الألفة بين أفراد هذه القرية الكونية ، هو المشهد الإعلامي الرومانتيكي لعالمنا ، وهو مشهد يطرح سذاجة الإنبهار و الرزوح تحت هيمنة مفعولات مركزية عقل الآخر ، الآخر الغربي الذي يرى العالم من خلال تقاليد العصر الروماني إرتكازا على أثينا و بإتجاه سيادة العنصر الابيض النقي بكل مفاهيمه ومقولاته ، ولعل هذا ما دعا ماكلوهان الى القول (١) : (إن القرية الكونية لن تكون مثالا للوفاق و المساواة ، بل على العكس ، فإن اسقاط حاجزي المكان و الزمان سيزيد من التنوع و مظاهر الإنقسام و الفرقة). و من ثم فإن إجتماع مليارات من المشاهدين حول أجهزة التلفاز لمشاهدة إفتتاح دورة أولمبيةعبر الأقمار الصناعية ، كمثال يحلو لمؤيدي القرية الكونية الإلكترونية ، أن يرددوه لا يشكل مجالا للرأي العام العالمي ، تتحاور من خلاله الثقافات ، و تحسم النزاعات و تزول فيه الفوارق بين الأفراد و الجماعات و يحقق نوعا من العدالة في توزيع المعلومات ، لأن عولمة الإعلام تهدد تراث الشعوب بالإنقراض ، حيث نجحت الدول المتقدمة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية في تحويل صناعة الإعلام من صناعة كثيفة الإبداع ، الى صناعة تقليدية كثيفة رأس المال ، ليغطي نمط الإنتاج الضخم لمدينة هوليود، وعلى إنتاج السلع الثقافية ، من نشرات الأخبار حتى البرامجيات التعليمية (٢) أنها ثقافة الماكدونالد و موسيقى الروك ، و سيادة النمط الإستهلاكي ليس على المستوى المعيشي و إنماعلى أنماط التفكير في دول العالم الآخرى،المتقدمة منها أو المتخلفة ، و الصرخة التي أطلقها وزير الثقافة الفرنسي (جاك لانغ) (٣) في مؤتمر اليونسكو بالمكسيك محذرا:(من ذوبان الثقافات الأوربية ، في تيار العولمة وداعيا الى قيام جبهة من الثقافات العالمية لصد الغزو الثقافي الأمريكي) ما زالت تتردد أصداءها مع عشرات الصرخات التي يطلقها ساسة و مفكرون و خبراء إعلام من مخاطر أمركة العالم عبر إستخدام التفوق الأمريكي في إمتلاك تقنيات الإتصال و صناعة الإعلام ، وفي مقدمتها الأقمار الصناعية ذات البث المباشر التي تصوب رسائلها مباشرة الى المشاهدين في المنازل دون الحاجة الى محطات إ ستقبال أرضية ، انه نوع من (القصف الإعلامي) الذي لا يختلف كثيرا عن القصف

بإستخدام المدافع و الطائرات ، و إذا كانت هذه هي الحال مع دول أوربا المتقدمة، فإن المشهد يبدو اكثر مأساوية و درامية ، بإتجاه ثقافات دول العالم الثالث ، وفي الجانب العربي اليوم ،خشية من ضياع و ذوبان أنظمة القيم الحضارية العربية الإسلامية في التيار الثقافي الأمريكي ، و هذه الخشية هي التي تدفع شعوب المنطقة الى الإستنجاد بمخزونها الحضاري و تراثها الثقافي للإبقاء على قدرتها على التحدي و العمل على قيام نموذجها الحضاري (٤) ، و هذا الدفاع عن هويتنا القومية الإسلامية ضد مخاطر أمركة العالم ، لن يتآتى عن طريق الإنغلاق على الذات أو رفض الاخر ، فهذا تصحيح خطأ بخطأ و مجموع الخطأين لا يكون صوابا و إنما يتآتى ذلك بإعادة بناء الموروث القديم المكون الرئيسي للثقافة الوطنية بحيث تزال معوقاته و تستقر عوامل تقدمه (٥)، إنها معركة حقيقية ، بين الخصوصية و العولمة و هي ليست معركة بر يئة حسنة النية بالتأكيد، بل تمس حياة الأوطان و مصائر الشعوب .

أهدف الدراسة

تهدف الدراسة إلى الإجابة على السؤالين التاليين

١- ما أثار البرامج الغربية للقنوات التلفازية الفضائية في الثقافه العربية؟

٢-كيف يواجه الأعلام العربي تأثيرات البرامج الثقافية الغربية في المجتمع العربي ؟

مجال الدراسة:

يتحدد مجال الدراسة فى تاثيرات البرامج الغربية للقنوات التلفزيونية الفضائية الوافدة التى تصل إلى الوطن العربي .

موضوع الدراسة :

يتحدد موضوع الدراسة في التأثيرات الثقافية لهذه البرامج في الثقافة العربية .

إذا كانت الدراسات السابقة في هذا المجال قد ركزت على التأثيرات السلبية للبرامج الغربية ،فأن دراستنا هذه ستتناول التأثيرات هذه من وجهة نظر نقدية .يعتبر التلفزيون من أهم وسائل الاتصال الجماهيري تأثيرا، نظرا لما يتمتع به من امتيازات كالصورة المتحركة الملونة والصوت المجسم والمؤثرات التي تضفي على الصورة أبعادا تساعد على إيصال الرسالة الاتصالية بشكل أفضل. وقد اصبح التلفزيون جزءا مهما في الحياة المعاصرة نظرا لما تمتلكه من قوة عجيبة يمارسها على المشاهدين ، ويكاد لا يخلو بيت في الوطن العربي من جهاز واحد أو أكثر. فالتلفزيون اذا كان نافذة يطل منها المشاهد لمشاهدة ومعرفة ما يجري في العالم فإنه أصبح الأن في ظل التحالف الجديد بين القوى الإقتصادية و الرمزية في عالمنا المعاصر ، حيث تلاشت الحدود الفاصلة بين عولمة الإقتصاد و عولمة الإعلام ، اقوى أسلحة العولمة بل ألة حرب كاسحة ، يقوم توسيع نطاق تأثيره ، مقام ترسانات الأسلحة و منصات الصواريخ التي لا بد أن يتم التصدي لها بالدروع و المتاريس ، و ليس بعيدا عنا ما قيل عن القمرالصناعي للبث التلفازي الذي كانت الولايات المتحدة تحت إدارة جورج بوش (الاب) تنوي اطلاقه بهدف اسقاط حكم كاسترو المناهض لها في كوبا (٦) . إن التلفاز اليوم كما يصفه (ريجيس دوبريه) (٧). الوسيط الموحد ، للدول المتعددة القوميات و المتعددة الأثنيات كما هو الأمر في الهند ، و بإمكاننا أن نقول الشى نفسه عن الإتحاد السوفيتي السابق ، فإنفجار القوميات و اللغات أعطى التلفاز الروسي الوظيفة الرئيسية كرابط كونفدرالي أعلى لم يعد بإستطاعة الأدب و المدرسة و الحروف السيريلية أن تؤمنه و في الوقت نفسه يمارس هذا الوسيط البارد حسب الرؤى الماكلوهانية ، دورا مفرقا بالرغم من بعده الكوني لآن التلفاز الكوني لا يؤمن الوحدة البشرية من خلال جمع شمل المشاهدين ، فهو في الغرب بالذات و تحت أنظارنا يقيم جغرافية غريبه من خلال التحالف المباشر بين الشامل و المحلي، إنه تراصف بين أميركا و مزمار القرية التقليدي ، بين الأرض الكونية و قطعة الأرض البلدية – تمفصل مزدوج للشعور البيئي – إن الأسلاك و المحطات الأقليمية تساهم في تفجير الوسائط الكبرى التي أقيمت في الماضي من قبل الإنسان الطباعي بين الفرد و الإنساني مثل الأمة و الطبقة و الحزب و المدرسة و الدولة و القانون . و العائلة و الزوجان و الأرض و الأم ، حيث تضيق الإنتماءات المعاشة و

يتوازن مع خيار العولمة المعلنة في الأفق (٨). لقد انشأت محطات التلفزيون في الوطن العربي لاول مرة في منتصف الخمسينات ، وكانت البرامج التلفزيونية تتصف بخصوصيات قطرية من اخبار وندوات وبرامج ثقافية واغان ، وسرعان ما تجاوزت برامج تلك المحطات السمات القطرية الى السمات القومية وانتشرت التمثيليات والافلام والبرامج المتنوعة بشكل واسع بين اقطار الوطن العربي واستحدثت ادارات وهيئات جديدة مهامها القيام بتبادل البرامج بين الاقطار العربية مما ساعد على الوحدة الثقافية العربية اضافة الى ذلك استخدام التلفزيون وسيلة من وسائل التنشئة الاجتماعية المقصودة وفي التغيير الاجتماعي وتكاد تنفرد هذه الصفة في استخدام التلفزيون في الوطن العربي بشكل خاص . وقد ظلت الثقافة العربية تنهل اسباب سيادتها وتجددها من مصدرين رئيسين هما : مجلس وطني ، وعربي قومي الى ان جاءت برامج الفضائيات الغربية في بداية التسعينات بموجات من التغيير في كل شيء وفي كافة مجالات الحياة واذا اخذنا بنظر الاعتبار ان هذه البرامج تنتج من قبل شركات اهلية اغلبها او بالاحرى كلها تسعى الى تحقيق اكبر قدر ممكن من الارباح اذ ان ٦٠% من القنوات الفضائية العربية حاليا ، ما زالت مفتوحة الا ان الكثير منها في طريقه الى التشفير . و من جانب آخر فإن إرتقاء الخدمات الإعلامية الأجنبية الوافدة الى المنزل العربي علىا لمؤسسات الإعلامية الوطنية ، يصعب على المرء تصور ما ينسجم عن هذه الهجمة الإتصالية على المنزل العربي و التي تؤدي فيما تؤدي الى نوع من طبقية الإتصال و ذلك نظرا الى أن هذه الخدمات الإتصالية المتقدمة لن تكون متاحة للأغلبية ، و لا شك في أن بعض المؤسسات الإعلامية العربية الخاصة لن تفوت هذه الفرصة لزيادة خدماتها الإعلامية مدفوعة الثمن) (٩) .

ومن أجل ذلك فهي بحاجة إلى إضافة نوع من التوابل أو البهارات إلى هذه البرامج ، هذه البهارات المضافة في أحيان كثيرة تحرق معدة وأمعاء المشاهد العربي . هل نأكل أم لا نأكل هذا هو السؤال ؟؟

لا يختلف باحثان على أن التلفزيون يؤثر في المشاهد وإن كان علماء الاجتماع والنفس قدموا نظريات مختلفة عن كيفية حدوث هذا التأثير .

يقول عالم النفس ألبرت بندورا بأن هذا التأثير يتم عن طريق تقليد المشاهد ما يراه على شاشة التلفزيون (modelling theory) وتقول أستاذة الرأي العام الألمانية إليزابيت نيلي نويمان في نظريتها المعروفة بـ(لولب الصمت) (Spiral of Silence) بأن تأثير التلفزيون يتم عن طريق جعل المواطن العادي يخشى التعبير عن أراء تختلف عما تقدمه وسائل الأعلام على أنه الرأي السائد . وقدم أستاذا الأعلام الأمريكيان ماكسويل ماكومبس و دونالد شو نظرية تقول بأن وسائل الأعلام قد تؤثر عن طريق وضعها جدول عمل الأحداث التي يمكن للمواطن الاطلاع عليها (Agenda Setting) . أما العميد السابق لكلية أنينبرغ للأعلام في جامعة بنسلفانيا جورج غيربنر فقد قادته أبحاثه المشهورة في مجال أثر التلفزيون في المجتمع الأمريكي إلى تطوير أسلوب لتحليل أثر التلفزيون في المجتمع وقدم نظرية التهذيب الاجتماعي(Cultivation theory) ومفاد هذه النظرية بأن مشاهده التلفزيون بكثرة تؤدي إلى خلق وعي بشأن المجتمع لدى المشاهد قد يختلف عن الواقع الحقيقي .

وفي دراسة أجريت حديثاً في لبنان في هذا المجال على عينة مختارة من ٣ فئات من طلاب الجامعة : الفئة الاولى هي التي تشاهدبرامج تلفزيونيةاجنبية بكثرة (اكثر من ٣ساعات يوميا) و الفئة الثانية هي التي تشاهد برامج عربية بكثرة ، أما الفئة الثالثة فهي التي لا تشاهد التلفزيون إلا قليلاً . أظهرت هذه الدراسة أن التلفزيون في لبنان يؤثر في نظرة المواطن اللبناني إلى واقعة الاجتماعي حول أربعة مواضيع تم اختيارها هي العائلة والجنس والمرأة والعنف .

وتشير النتائج إلى أن المواطن الذي يشاهد برامج غربية تكون نظرته إلى الواقع الاجتماعي متقاربه من النظرة الغربية، على عكس المواطن الذي يشاهد برامج عربية إذ أن نظرته إلى الواقع الاجتماعي هي أكثر تعلقاً بالنظرة التقليدية، والمثير في هذه النتائج أن المشاهد للبرامج العربية بكثرة هو أكثر تعلقاً بالنظرة التقليدية من الذي لا يشاهد التلفزيون إلا قليلا (١٠)

و من ثم فإن الخطر الكامن في تسخير القنوات التلفازية كأداة من أدوات العولمة الآعلامية هو في قوة وسائلها و تأثيرها في الأجيال الناشئة منذ نعومة أظفارهم و إعتمادها على أقوى طرق التأثير الفنية في

الحركة و الصوت و الصورة و الأفلام المتحركة ، لدرجة حولت أبطال الأفلام الأمريكية و لاعبي الكرة و التنس العالميين و عارضات الأزياء الى رموز و أبطال الجيل الناشئ الذين اعتبروا هذه المظاهر هي الحضارة و التطور و طريق النجاح ، ولا سيما أن هذه (ثقافة التلفاز) هي ثقافة الصور والفيديو كليب بكل مؤثراته الفنية و الاعلاميةالتي تبعد المتلقي عن القراءة و المناقشة و التفكير ، عبرالقصف الأعلامي المتواصل الذي يفرض قيما و أسسا ثقافية جديدة و مختلفة عن كل ما هو تقليدي في ثقافة المجتمعات ، حيث غدت أهم مواجهة ثقافية شاملة بين التيار الأعلامي العالمي و ركيزته في الغرب الأميركي و بين كافة الثقافات التي تفتقد الى الحداثة و تطور المفاهيم ، فهو بين الديناميكية و سرعة الحركة و القرار و حرية الأفكار العامة ، وفقا لمفاهيم (الأمركة) و بين الأصالة و التقاليد و خصوصية العادات و الذات ، وهكذا أصبح تيار العولمة تهديدا لكل خصوصية و تراث ثقافة خاصة بالمجتمعات و الشعوب. (١١)

خصائص البرامج الغربية في القنوات التلفازية الفضائية:

من خلال تحليل مضمون بعض البرامج الغربية والبرامج الامريكية تبين أن البرامج التلفزيونية سواء أكانت ثقافية أو تربوية أو إجتماعية أو سياسية ... إلخ ، تتبع وتتغذى على واقع المجتمع وتراثه وتدور في محور القيم الاجتماعية.. ، أي أن البرامج التلفزيونية تعكس الواقع ومشكلاته . ونظرا لإختلاف المجتمعات البشرية منذ القدم من النواحي العديدة : الثقافية والدينية والاجتماعية والايديولوجية ، فإنه من المنطق أن يكون هناك تباين جوهري في النظر إلى الاشياء .وجزء من هذا التباين يؤدي إلى صراعات كبيرة ، وفي التاريخ شواهد كثيرة منها ما ادت إلى كوارث إجتماعية مازالت أثارها باقية حتى يومنا هذا .

إذا عندما تعكس البرامج التلفزيونية وجهات نظر خاصة وأيديولوجيات معينة وثقافة محددة المعالم وتنشئة إجتماعية مقصودة، حسب واقع وتوجهات الامة –أية أمة– في هذه الحالة الاهداف المتضمنة لهذه البرامج، هي أهداف من الممكن أن تؤثر في التغيير الاجتماعي للامم الاخرى ،التي تستهللك هذه البرامج وتعيش معها في البيت والشارع وحتى في المدرسة.

الثقافة الأمريكية ... والعالم

تعد القنوات التلفزيونية العامة منذ نشأتها ذات خصائص وطنية . وقد تم تدعيم هذا التوجه من خلال وضعها كمؤسسات تابعة للقطاع العام ، وتختلف مواعيد النشرات الأخبارية والبرامج الترفيهية والأفلام والبرامج الوثائقية بحسب نمط حياة كل مجتمع وكل دولة . ففي مجال الأذواق والممارسات والأنماط الثقافية هنالك بعض الخصائص المؤكدة وقد ظل الواقع قائماً في بلدان العالم حتى نهاية الثمانينيات في الأعم الأغلب حتى جاءت الفضائيات لتؤثر في توجه هذه النظم أنفة الذكر . وبات من الصعب بل من المحال في أحيان كثيرة الحفاظ على ذوق المستهلكين العرب وغيرهم في البلدان النامية الذي يعد المتلقي في عملية اتصال أحادية الجانب لصالح أرجحية البلدان الغربية ذات السطوة التكنولوجية في عالم اليوم ، ومما زاد الطين بلة أن بعض هذه الدول الغربية قد خطت خطوات كبيرة في التخصص البرامجي بيد أن هذا التخصص في البرامج التلفزيونية قد خضع بشكل أو بآخر إلى تأثيرات تقانية أمريكية بحكم الضخامة الهائلة للدراما والأفلام السينمائية والبرامج الثقافية الأمريكية والسطوة التكنولوجية الكبيرة التي تحتلها الولايات المتحدة عبر منظومة أقمارها الصناعية وانتشار قنواتها التلفزيونية الأمر الذي باتت القيم الأمريكية تنتقل إلى شعوب أوروبا وتصبح جزءاً من الثقافة الأوربية .

ففي دول الأتحاد الأوروبي الخمسة عشر زاد عدد الداخلين الى السينما لحضور افلام امريكية من ٤٠٠ مليون مشاهد عام ١٩٨٥ الى ٥٣٠ مليون مشاهد عام ١٩٩٠م ، أي أرتفعت نسبتهم من ٥٦%الى٧٦% ، وفي الفترة نفسها اِنخفض عدد مشاهدي الأفلام الوطنية (كل بحسب سوقه الوطني)من (١٧٧) مليونا الى (٨٩) مليون مشاهد ، أي من ٢٥%الى١٣% ، و في الشاشة الصغيرة أحتلت الأفلام الأميريكية ٥٣% عام ١٩٩٣ ، و الأفلام الوطنية الأوربية ، كل في بلده ٢٠% ، و الأفلام الوطنية غيرالأوربية ٢٣% ، وقد حققت هوليوود فائضا تجاريا يزيد على أربعة مليارات دولار على أوربا عام ١٩٩٥ ، و يأتي اكثر من ٥٦% من مدخولات الأفلام الأميركية من التصدير، وقد أصبح قطاع السمعيات

البصرية و السينما المصدر الأول بعد الصناعات الجوية ، لذلك فكل ما يحد من التصدير في هذا المجال يحاربه الأميركان بشراسة و تتصدى له وزارة التجارة الأميركية بكل قوة ويشرح هذا الامر اسباب الحرب التجارية التي دارت بين اوربا والولايات المتحدة الامريكية، و يبدو أن المعركة الحاسمة على مستوى الكون ، تدور حول السيطرة على القطاعات الثلاث الصناعية .(الكمبيوتر و التلفاز و الهاتف) و التي ذابت في (الأنترنيت) فالشركة التي تهيمن على الأنترنيت microsoft ميكروسوفت ، كانت من أبرز المرشحين لذلك قبل قرار القضاء الأميركي بتقسيمها) تسيطر على الإعلام في العالم مع كل المخاطر التي يحملها ذلك على حرية التفكير ، و هذا الأمر طال الصحافة المكتوبة التي أضحى يسيطر عليها عدد قليل من الأثرياء الذين راحوا يشترون الصحف التي تعاني من مصاعب إعلانية ، وبات رجال الأعمال مهيمنين على قطاع الإعلام و الإتصال في العالم ، وباتت محطات التلفزة الأميركية تنشر برامجها عبر الأقمار الصناعية في العالم بإسره مثل(MTV,CNN) فتحدث تأثيرها العميق على العادات و القيم و الأفكار و الثقافات و تراجعت السلطة السياسية الى المركز الثالث بعد السلطة الإعلامية و الإقتصادية ، وصار الحصول على هاتين السلطتين ، يسهل كثيرا من الحصول على السلطة السياسية ، كما فعل (برلسكوني) في إيطاليا مثلا. وفي حجم الإنفاق على الحملات الدعائية في الإنتخابات الأميركية الأخيرة بين المرشحين آل غور و بوش الأبن ، التي فاز فيها الأخير (١٢).

ومن الملفت للانتباه أن بعض البلدان النامية كالأرجنتين والهند مثلاً باتت تنتج الدراما والبرامج والمسلسلات التلفزيونية على أنماط الثقافة الأمريكية وهي أصلاً موجهه لهذه البلدان النامية.

اصبح التفكير في الثورة الاتصالية اليوم مناسبة للتساؤل عن نوع النتائج التي يتوقع أن تحدثها على الصعيد الثقافي ونسق القيم على المجتمع العربي فالقوى المتحكمة في النظام الإعلامي المعاصر مدججة بما يكفي من أسباب القوة التقانية لتحقيق اختراق ثقافي ناجح للمجتمعات الأخرى يتحول بمقتضاه الحقل الثقافي والاجتماعي لهذه المجتمعات إلى ميدان خصب لتوطين نظام كامل من القيم والرموز ونظم التفكير مضاد

للذاكرة الجماعية والقومية هادف إلى صياغة الشخصية الاجتماعية العربية على القوام الذي تستهدفه هذه الجراحة التقانية الجديدة (١٣).

والتي تنفذ من سحر الصورة بكل ما تحمله من قيم ورموز وبكل ما يرافقها من مؤثرات صوتية.

ففي أعقاب نهاية الحرب الباردة خرج المفكر الأمريكي برنارد لويس بنظرية تقول: " إن القومية العربية انتهت " وفي الوقت ذاته أعلنت دوائر الخارجية الأمريكية أنها لم تعد تتعامل مع البلدان العربية باعتبارها تعبر عن سياسة عربية واحدة بل عن سياسات مختلفة لفرقاء متنوعين .كان هذا السؤال الذي وجه إلى المفكر العربي كلوفيس مقصود في نهاية التسعينيات وكان الجواب: إلى حد ما ومع الأسف الشديد فأن ما تطرحه هذه المقولات والنظريات عن حال الواقع العربي اليوم هو وصف حقيقي للحالة الراهنة (١٤) .

إن قوة العرب في وحدتهم ووحدة فكرهم لأن الحضارة العربية واحدة وكافة مقومات النهوض متوفرة وهنالك محاولات كثيرة في هذا الاتجاه كانت ومازالت ، وربما كان النقص كامناً في الآليات المعتمدة في كل المحاولات التي على اختلاف توجهاتها ، كانت تفتقد إلى ما يمكن تسميته بـ:(ثلاثية النهوض)، وهي التواصل والتراكم والتكامل (١٥). هذه هي حقيقة ظاهرة للعيان اليوم وهي ظاهرة " فرقاء متوحدون " إن صح التعبير.

العولمة مالها وما عليها

الصورة اليوم هي المفتاح السحري للنظام الثقافي الجديد ، نظام إنتاج وعي الإنسان بالعالم، إنها المادة الثقافية الأساس التي يجري تسويقها على أوسع نطاق جماهيري ، وهي تلعب في إطار ثقافة العولمة الدور الذي لعبته الكلمة في سائر التواريخ الثقافية التي سلفت ، لأن الصورة بحد ذاتها خطاب ناجز مكتمل ينفذ إلى أدراك المشاهد فقد باتت قادرة على تحطيم الحاجز اللغوي تماماً، لكي تصل إلى أي إنسان في عقر داره في أية بقعة من العالم .

و ينبع هذا التأثير من كون الصورة تعبير عن فكر بصري و اِبداع يسلك سبيل التخيـــل و التحـــاكي لترجمة أفكار و معان مستمدة من البيئة الثقافية التي يتحرك فيها خطاب الصورة والـــذي يختلـــف بـــاِختلاف الصور و اِختلاف العلاقة التواصلية التي تحصل مع الصورة التي هي (دائما متعدده ، جمعية تختزن أشـــياء كثيرة و من ثمة دلالات كثيرة ، و التجذر الثقافي يجعل منها اِطارا قابلا لتأويلات مختلفة ، لاِنها بسب بعدها التواصلي و تعددها الدلالي مادة يساهم الملتقي في تحديد معناها و قيمتها ، تبعا لاِنتمائه (السوسيو الثقـــافي) حسبما يقول (رولان بارت)(١٦) ، ومن ثم فاِن المعلومات التي يعرضها التلفاز عبر سيل الصور المتغيـــرة الأشكال تتخذ الشكل الدرامي الخاص بالتلفاز، حيث القوى العاطفية أكثر أثرا على المشـــاهد مـــن أي تـــأثير ثقافي أو معرفي ، اِذ يتسم الفضاء الصوري بالأتي الذي يمثل جوهر التأثير الذي تمارســـه الصـــورة(١٧) و هو:

١- ان هناك فجوة الصورة التي تظهر على الشاشة و الصورة التي يتلقاها المشاهدون في مقامـــات مختلفـــة فالرسالة التلفازية رسالة مبنيه ،هدفها تحقيق اِغلاق أيديولوجي يتصل بمقصدية الخبير الاِعلامـــي أو رجـــل السلطة الذي يسعى الى أن نرى العالم من خلال أعين السلطة المختصة و عندما يطلب ذلك فاِن المطلوب من المشاهد ، أن يؤمن- بدون جدال- بأنه يرى الواقع الموضوعي الذي يماثل ((الحقيقة الرسمية)) للســـلطة (١٨).

حيث ننظر الى العالم الخارجي من خلال الصور ة ، و من خلال الاِنفعالات التي يثيرهـــا العـــالم الخارجي في أنفسنا كما يقول (شو بنهور) (١٩).

٢- ان الفضاء الصوري التلفازي فضاء اِستبدالي يعمل على اِستبدال صورنا الشخصية عن العالم و المتولـــدة داخليا بالصورة المتجسده لنا بواسطة وسائل الصور المتحركة ، فحين تشاهد التلفاز تكـــون جميـــع قـــدراتك العقلية لتكوين الصور، ساكنة هاجعة مغمورة بالصورة التلفازية على نحـــو مـــؤثر بينـــك و بـــين الصـــورة الشخصية ، يستبدل نفسه ، أي يحمل محمل غيره (٢٠) و تزداد خطورة ذلك دعائيا في أن فضاء الصـــور

التي تختزن في ذاكرة المتلقي عن أحداث في أماكن لم يشاهدها و لن يصلها منتقاة من الصور التلفازية و بالتالي إن سلوكه أو مواقفه اللاحقة مبنية أيديولوجيا على خزينه من هذه الفضاءات الصورية .

٣- ان فضاء الصورة كفضاء مجسد أيقوني، لا يقتصر على أيقنة الرسالة و إنما يتجاوز ذلك بإتجاه (أيقنة) خيال المتلقي أيضا. بما يفرضه عليه من شكل أو صورة محددة ، تمثل تخيل المرسل لها و إختياره (وهذا عكس ما يجري في حالة الإستماع حيث تقوم الإذاعة الصوتية بتحرير الخيال و إطلاقه بلا قيود أو حدود في عالم التفاصيل المرئية التي يخلقها المستمع لنفسه و هو عالم إبعاد لا حدود لها (٢١)

ان خطورة الفضاء التلفازي عبر القنوات الفضائية ،يكمن في قدرته على إستقطاب الإنتباه و إخضاع الذاكرة لتأثيراته الإستبدالية (إستبدال الصورة التلفازيه بالصورة الشخصية للملتقي) فالذاكرة ترتبط بالإنطباع الصوري ، إذ تثير الصور الأركان النفسيةالطفلية عند الصغير و الكبير معا و تهيمن النواحي الحسية على الوحي، كما تثير العقلية الأثرية بدل العقلية الفكرية ، وبالتالي يمكن التأثير على المشاهد من خلال آليتين نفسيتين هما: (الإسقاط) و (التماهي) مما يؤدي الى تغير في العلاقة مع الواقع ، إذ لعملية التماهي قدرة كبيرة على الإقناع ، فالمشاهد يجد نفسه متكيفا لرغبات الصورة مع إزاله مؤقته للذات و تمجيد لما يحمله موضوع الصورة (٢٢) و هذاما يفسر لنا الدور الخطير للصورة التلفازية في الإتصال الدعائي السياسي و الإعلان التجاري ، و الذي جعل من الإنتخابات الرئاسية الأميركية بل و حتى الأوربية نوعا ما، صلات إعلانية في جوهرها و أضحت الدعاية السياسية ليست بمضامين الخطب السياسية الطويلة المملة ، و لكن بظهور السياسي كنجم تلفازي / إعلاني، و بشكل بسيط و طبيعي و يومي ، أمامنا، و يصبح سياسي التلفاز مثله مثل كل النجوم يدخل البيوت و القلوب معا (٢٣).

إن كون الصورة سلطة رمزية على صعيد الإدراك الثقافي العام يعني أن النظام السمعي – البصري (نظام ثقافة العولمة) أصبح المصدر الجديد الأقوى لانتاج القيم والرموز وصناعتها ، وتشكيل الوعي والوجدان والذوق ، ولذلك أثاره الخطيرة على صعيدين :

أولاً: على صعيد مستوى التنمية الثقافية والقيمية التي تقترحها العولمة على البشر اليوم

ثانياً: على صعيد درجة التناسب الطبيعي بين الثقافي والاجتماعي في المجتمعات المعاصرة والمستقبلية.

تبدو الثقافة على الصعيد الأول على مستوى من الهزال والفقر والسطحية يثار معه التساؤل المشروع عن مستقبلها الإنساني . تشبه ثقافة هذا النظام (الثقافي) سائر مواد الاستهلاك وشركات إعلامية تتنافس لتقديم سلعتها إلى المستهلك في أخراج مثير يضعه تحت وطأة إغراء لا يقاوم .

لا وقت للتفكير والتمحيص والتردد النقدي وسائر ما يمكن أن يحمي الوعي من السقوط في أغراء الخداع . و إذا ما أخذنا في الحسبان أن هجوم ثقافة الصورة على الوعي يجري في امتداد التراجع المروع لمعدلات القراءة في العالم تتبين لنا معالم النفق المظلم الذي تدخل إليه الثقافة والوعي في عصر الصورة والأعلام السمعي – البصري،في ضمور متزايد لجسم المعرفة فضلا عن التفتت الذي سيصيب نظام القيم فيكرس منظومة جديدة (٢٤) .

أما على الصعيد الثاني فتبدؤ الثقافة خارج حدود تعريفها وماهيتها الطبيعيتين ، ولن يعود في وسعنا تحديدها بالقول أنها تعبر عن تمثل الناس لمحيطهم وتعبير عن نظام اجتماعهم المدني بل سيصبح مطروح علينا أن نفكر في معنى أن تنشأ في وعي الناس ثقافة أو قيم ثقافية لا تقوم صلة بينها وبين النظام الاجتماعي الذي ينتمون إليه ، فحين يحمل الناس عبر الزخ اليومي للصور المبثوثة منظومات من الأفكار والقيم لم تخرج من رحم التطور الاجتماعي الطبيعي ، لا يبقى ثمة ما يدعو إلى استصغار الأمر إذ من رحم هذا الإنفكاك والتجافي بين الثقافي والاجتماعي ستتناسل أنواع أخرى من التجافي والخلل في البنى الاجتماعية مما سوف يعرضها إلى تشويه مضاعف يضاف إلىتشويه الخلقة الأصلي .

إن ما يهمنا في المقام الأول التشديد على أن الثقافة بوصفها منتوجاً اجتماعياً دخلت ميدان هذه العملية الاقتصادية التجارية الجديدة أسوة بغيرها من المنتوجات إذ تحررت من القيود الجمركية وباتت قابلة للتداول على أوسع نطاق في العالم ، من المهم هنا الإشارة إلى أنها أصبحت – مجرد سلعة – ينطبق عليها من الأحكام والإجراءات ما ينطبق على سواها من السلع المادية ، غير أن الأهم هو الإقرار بأن مجال المنافسة في تسويق هذه السلعة بات ضيقاً للغاية ولا يتسع إلا للقوى التي تمتلك قدرة ثقافية أكبر ، الأمر الذي

يفرض القول بأن التبادل الثقافي العالمي الجاري في ركاب التجارة الحرة تبادل غير متكافى ولا يعبر عن أية إمكانية لتحويل العولمة الثقافية إلى تثاقف وتوازن بين الثقافات والشعوب والمجتمعات ، بل يحتفظ لها بتعريف واحد هو : الغزو والاختراق .الذي يتمثل بثلاث مستويات أساسية تندرج في إطار ظاهرة القتال المعنوي وهي : الإختراق الثقافي و التخريب الفكري و التسميم السياسي، حيث الإختراق يعني إعداد الأرض الخصبة في أول الغزو، عبر الوصول الى مراكز صناعة الثقافة، و الهيمنة على أدواتها، لتأتي بعد ذلك عملية التخريب الفكري، وهي عملية لا تقتصر على أدوات الإختراق الإعلامية، و إنما تتداخل مع عمل أجهزة المخابرات، بإغتيال القيادات الفكرية و إسقاطها للرموز الكبيرة في المجتمع المستهدف، فمجتمع بلا قيادات فكرية حقيقية تمثل بوجودها رمزية معينة، من السهل التلاعب بخياله الإجتماعي ونسق التصورات المتوازنة في هذا المجتمع، لتأتي بعد ذلك عملية التسميم السياسي، و التي تمثل قمة التلاعب بالنظام القيمي في إحلال القيم الثانوية محل القيم الأساسية، وهذا التلاعب لا يقتصر على أفراد الجماعة و إنما يتسع ليشمل التلاعب بالإدراك القيادي وجره الى منطقة إخلال التوازن و أخيرا (منطقة القتل)، حسب القاموس العسكري . ان تجارب الحرب الباردة، و أفاق الخطاب العولمي المعلن حتى الآن تنذربالكثير فيما يمكن أن يحدث في العالم في ظل إختلال التوازن بين الشمال الغني و الجنوب الفقير .

ومن خلال ذلك يتضح أن القنوات الوافدة و إن كانت تشكل لقاء الجمهور العربي بالفكر الغربي والحضارة والثقافة الغربيتين إلا أن هذا اللقاء لا يشكل حواراً بين طرفين إذ يتحدث طرف واحد فقط بينما يعد الجمهور العربي مجرد طرف مستقبل (٢٥) .

والحقيقة أن هذا هو الجزء الكبير من القضية فالاختراق الثقافي هنا ذو ممر واحد يؤثر ولا يتأثر ونحن نعلم أن كفتي ميزان العدالة متوازنة ويجب أن تبقى كذلك ويجب أن تكون قضية مثاقفة لإعادة الكفة الراجحة إلى مستواها.إن التفتح على المصادر الأجنبية لا ينبغي أن يجعلنا نذوب في الثقافات الأخرى (٢٦)

ولعل الثورة الشاملة في الاتصالات التي يشهدها العالم اليوم يجعلها كفيلة بأحداث تغيرات واسعة النطاق في المنظومات المختلفة وبخاصة شبكة العلاقات الإنسانية بمختلف مستوياتها ، وفي عصر ثقافة

العولمة هذه التي قطعت شوطاً كبيراً في الغرب وحققت نجاحاً وتقدماً في مختلف جوانب الحياة بما ينسجم وواقع مجتمعاتهم في الفكر والثقافة والاجتماع والاقتصاد والسياسة ..... لابد أن تنعكس سلباً أم إيجاباً على الأمة العربية والواقع الذي تعيش فيه لان الوسائل المستخدمة في هذه العولمة هي نفسها (٢٧) . ويبقى السؤال هل باستطاعتنا أن نوظفها لصالحنا في حياتنا وحضارتنا وثقافتنا ولغتنا ؟

بادئ ذي بدئ إن أكثر ما يثير الانتباه من ثقافة العولمة أثار البرامج التلفزيونية والأفلام السينمائية التي تبث من(خلال قنوات التلفزيون وشبكات الإنترنت)المدى الذي بلغته الثقافة الشعبية الأمريكية من الانتشار والسيطرة على أذواق الناس في العالم ومنها العالم العربي ، فالموسيقى الأمريكية في التلفزيون والسينما من مايكل جاكسون ورامبو وحرب النجوم وأفلام العنف أصبحت منتشرة في العالم العربي . كما أن النمط الأمريكي في الملابس والجينز و الأطعمة السريعة وغيرها من السلع والأنماط الاستهلاكية انتشرت على نطاق عالمي واسع وبالأخص بين الشباب إضافة إلى ذلك أصبح تداول بعض الاصطلاحات في اللهجة الأمريكية مألوفة ، وكذلك انتشار وسائل الدعاية والإعلان والتسويق ومالها من تأثير في نمذجة الأذواق والأزياء وفي قولبت الرموز الثقافية الناشئة (٢٨) .

عمدت هذه الوسائل على إحلال ما هو حسي كخطاب مهيمن، يتم فيه إحلال الأشياء محل المفاهيم و التصورات من حيث قدرتها على تحقيق الإتصال و المشاركة، فقد حلت أدوات الزينة و التبرج مثل، محل كل خطاب لساني حول الأنوثة و الجمال، و صارت نتاجات هذه الأدوات وطرازاتها أنساقا أتصالية بين المرأة و الرجل، تفرض دلالاتها المصاغة التي لاعلاقة لها بالمجال الدلالي الحقيقي للخطابات اللسانية الأصلية، حول معاني العلاقات العاطفية و الجمالية، حتى تصير الكلمات المستعملة في هذه السياقات نوعا أخرا من الأدوات المصاغة على شاكلة أدوات الزينة و طرازات الزي، ولا يقتصر الأمر على ذلك بمحلولية الأشياء وإنما و صل الى حد إستبدال القيم و الممارسات الثقافية التقليدية للمجتمع بحيث إن: صالات السينما و التلفاز و ملاعب الكرة ستستبدل تدريجيا بالقيم و التعابير الثقافية القليدية الخاضة التي خلقتها الجماعة،

ثقافة الجماهير، الكوسموبوليتيه حسبما يقول (محمد أركون) (٢٩) في تفسيره لانقطاع الشباب في العالم العربي و الإسلامي عن (الذاكره – التراث) .

وفي خضم ذلك يمارس خطاب العولمه التلفازي وظيفة (التشيؤ) بإحلال عالم الموضوعات محل العالم الإنساني، و إحلال الأشياء محل الأفراد، بإختزال القيمة الإنسانية الى قيمة سلعية (كصيغة عامة تشكل المجتمع) بتخلل الصيغة التجارية مجمل الظواهر الحياتية للمجتمع و تحولها الى صورتها، بدل أن تصل فقط من الخارج بين تطورات مستقلة بذاتها عنها وموجهة نحو إنتاج قيم إستعمال (٣٠) .

إذا النمط الغربي في الاحتفالات والملابس والموسيقات والرقصات وغيرها قد قبل بشكل واسع وفي مناسبات كثيرة و نمت الثقافة الغربية والثقافة الامريكية على حساب الثقافة العربية ، وهنالك تخوفات في المجتمع العربي وهي تخوفات مشروعة.

ويظهر جليا من خلال الواقع الحالي إن الواقع يفتقر إلى إرادة عربية موجدة من أجل معرفة مدى تأثير الثورة الاتصالية الفضائية على مجالات الحياة كافة.

إن ثورة الوسائط المعلوماتية آتية وفي جعبتها عجائب تخرج عن نطاق الحصر فكما أذهلت السيارات والطائرات الأولى أجدادنا و أدهشنا الراديو والتلفزيون لدى ظهورهما ، ستقلب ثورة الوسائط المعلوماتية (Informedia Revolution) من خلال القنوات الفضائية حياتنا رأساً على عقب . إن الزمن يسعى على إيقاع ثابت لا يتغير . الزمن والتقدم توأمان لا ينفصمان (٣١) . وإن الوقوف ضد تيار التقدم بسفينة شراعية قديمة مصيرها محدد مسبقاً .

هنالك في الواقع مستويات للنظر في هذا التطور الذي يعرفه ميدان ثورة المعلومات ، منها المستوى الإنساني العام حيث ينبغي الاعتراف إن هذا التطور ملك للإنسانية وإنها سوف تستفيد منه ، وهذا ما يفرض علينا التعاطي معه من مدخل الاندماج فيه والمساهمة في إنتاجه فضلاً عن استيعابه واستثماره تماماً مثلما تعاطينا مع مكتشفات ومخترعات عديدة لم تكن لنا مساهمة في إنتاجها كالطرق والسيارات والطائرات .

نعم كانت لهذا التطور اثار سلبية أيضاً من قبيل: تفكك المدن والقرى والعائلات وانتقال بعض الأمراض المعدية بسبب سرعة الاتصال وسرعة مغادرة المكان، ومع ذلك لا ينبغي لهذه الذيول السلبية أن تحجب عنا رؤية الفوائد الكبيرة التي قدمها هذا التطور تيسيراً لشروط الحياة ، وينبغي أن نولي أهمية لهذا المستوى الإنساني في منتجات التقدم، فقد سبق لنا كعرب أن أحسنا التعامل معها فيما مضى، حينما استفدنا من الثقافة اليونانية ونهلنا كثيراً من مبادئها من دون عقد . ثم حين نقلنا إلى أوروبا رصيد حضارتنا وثقافتنا، علينا أن نكون اليوم في مستوى ما كنا عليه في علاقتنا بالإبداع الإنساني (٣٢) .

لا ينبغي أن نقف أذن عند المستوى السلبي في صورة ما يجري من ثورة على صعيد الاتصالات لأن هذا العنصر السلبي كامن بدرجة أولى في واقعنا الإعلامي العربي فنحن غير قادرون حتى الأن على التعاطي مع هذا التحول بدرجة قوته نفسها أو على الأقل بما يقارب تلك الدرجة . غير أن عجزنا عن الاندماج في نسيج هذا التحول كذات فاعلة ليس مبرراً لكي نكوّن نظرة دفاعية نكوصية تجاه ما يحدث مع أن معظم إهتماماتنا و مخاوفنا في منطقتنا العربية من ظاهرة العولمة ، تتركز على البعدين: السياسي و الإقتصادي ، فإن هناك إجتهادا جديرا بالاحترام يقول بان التتحدي الحقيقي الذي يواجه امتنا العربية و عالمنا الإسلامي هو تحدي العولمة الثقافية و الإعلامية ، وإنه اذا نجحت جهود التصدي و المواجهة الصحيحة للغزو الثقافي الذي تحمله رياح العولمة ، فأن مخاطر العولمة السياسية والإقتصادية تظل مخاطر محدودة و تحت السيطرة الممكنة.

وربما يكون ضروريا أن نقول إن نقطة البدء في التصدي لخطر (العولمة الثقافية) تكمن في القدرة على التمييز بين ما هو مفيد وما هو ضار ، من هذه الرياح الوافدة والتي يخطىء كثيرا أولئك الذين يتوهمون إمكانية غض النظر عنها أو تجاهلها ، في ظل وجود أكثر من (٨٠٠) قناة فضائية أمريكية و أوروبية منها (٦٠٠) محطة فضائية أوروبية و(٢٠٠) أمريكية تمثل التناقض في معظم برامجها مع ما هو عربي إسلامي(٣٣) وغياب شبه كامل عربي و إسلامي ، فهنالك (٦٣) قناة فضائية عربية و إعلام الفضائييات هذه نعظمه مهاجر في غير موطنه ، يستورد اكثر موارده الإعلامية و يتلقى دعم الحكومات عن بُعد و يتنافس

سلبيا على سوق إعلان هزيل و قطاع محدود من الجمهور(٣٤) . أما بالنسبة للانتاج التلفازي و السينمائي فلا تتعدى نسبة الإنتاج العربي في هذا لمجال أكثر من ٣٠% و الباقي كله مستورد أجنبي يشّكل الإنتاج الأمريكي ٨٠% منه (٣٥) واذا كانت اوربا تشكو من الاحتكار الامريكي ، ومن ارتفاع كلفة الانتاج ، وفي مقدمتها دول مثل فرنسا وبلجيكا والنرويج ، بالرغم من ان استيراد هذه الدول الاوربية لمحتوى الاعلام الامريكيي يختلف عن استيرادنا نحن له ، اذ ان استيرادالاوربيين لمحتوى الاعلام الامريكي يعني استيرادا من ثقافة مقاربة وليست مختلفة كما هو الحال بالنسبة لنا ، فان حجم المخاطر التي تواجه الاعلام العربي لاتترك له مجالا الا لاحد خيارين : اما الانخراط الكامل في المنظومه القيمية و الأخلاقية و الاقتصادية و السياسية، لنمطية السوق و قيمه اللبرالية الجديدة او اقتراح السبل لمواجهة التحديات المفروضه، فالاعلام العربي حسبما يشير تقرير (الاعلام العربي حاضرا و مستقبلا) الذي اعدته المنظمه العربية للتربية و الثقافه و العلوم في الجامعة العربية (٣٦).

يخلص إلى ان اعلامنا لم يرتفع إلى مستوى الرسالة المنوط بها في تعميق وعي المواطن و اشراكه في التفاعل و اسهامه في البناء الجماعي، اذ يواجه هذا الاعلام مأزقا رباعي الجوانب يتمثل ب(٣٧): مأزق سياسي و مأزق اقتصادي و مأزق ثقافي ومأزق اعلامي .

ففي ظل انتشار الصحون اللاقطة و الفاكس و الانترنت يغدو الاقتناع بمحاصرة الصوت أمر اشبه بممارسة المستحيل، و في هذه النقطة بالذات فان المستقبل التكنولوجي ينبىء تحويل كل جهاز تلفاز إلى جهاز(راديو- تلفاز) لاستقبال المئات من الموجات البثية المرسلة من خارج الحدود، ومن ثم تصبح الرقابة بلا معنى و ضربا من الخيال، حيث تمارس صناعة الرموز الغربية هيئة شبه مطلقة في كافة الجوانب ، وهو ما يمثل مخاطر حقيقية بالنسبة للنشىء الجديد وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال مباريات كأس العالم و مسابقات الجمال وفي بطولة الأفلام السينمائية، حيث التقليد شبه الكامل من جانب الأطفال و الفئات العمرية تحت ٢٠ سنة، وهو ما اظهرته العديد من الدراسات في عدد من الأقطار العربية. فاذا كان الأطفال في المانيا

يشاهدون التلفاز لمدة ثمان ساعات اسبوعيا، وان الأباء قلقون مما يحمله التلفاز من ثقافة هوليوود الأمريكية على أطفالهم (٣٨) فما هو القلق الذي يتوجب علينا نحن ان نحمله؟!

ولكي نكون أكثر تحديدا في مواجهة الغزو الثقافي هذا عبر الفضائيات لابد لنا من تحديد الخط الفاصل بين ما يجب علينا ان نستفيد منه وما يتحتم أن نحذر منه، وذلك لايتحقق الا من خلال صحوه ثقافية و اجتماعية و تربوية تلتحم فيها جهود الأسرة والمدرسة في تقوية البنية الثقافية والاجتماعية والتربوية للفرد، وتأهيل جميع القيم والتقاليد التي تتفق مع هويتنا العربية والاسلامية. بل اننا لا نسبح في الخيال، اذا قلنا بأن أمتنا العربية والاسلامية تمتلك مقومات القدرة على ان تكون طرفا مرسلا في عصر العولمة وليست مجرد طرف يستقبل و يتلقى فقط. و ان المبدع الاعلامي لقادر على أن يتحدى القيود المفروضة عليه وان يستحدث طرقا مبتكرة لمواجهة الانتاج الضخم، و يكفي ان نشير هنا إلى ان اكثر البرامج التلفازيه نجاحا في الولايات المتحدة الامريكية، هو: البرنامج المسمى (٦٠ دقيقة) لم يعتمد على الابهاروالتكنولوجيا بل يعتمد على اللقاءات والصور الثابثة والحوار مع الجمهور ، (٣٩) كما ان مخاطبة الاخر وتعريفه بحضارتنا العربية الاسلامية عبر الفضائيات ، لابد له ان يحتل حيزا مهما في الاعلام العربي والاسلامي ، وان كانت المملكة العربية السعودية قد بدات بالبث الفضائي للقران الكريم باللغة الانكليزية ،واستخدمت مصر الترجمة في موادها المعروضة . فان البحرين تواصل هي الاخرى بثا تلفازيا على شبكة الانتربت ، تمهيدا لاطلاق قناة تلفازية عالمية باللغة الانكليزية .(٤٠) واذا كان صناع (العولمة) يتاجرون بشعارات وعناوين اسماء : (العدالة والحرية والديمقراطية وحقوق الانسان)،فان في تراثنا وثقافتنا ومعتقداتنا ما ينتصر لهذه الافكار باكثر مما يشيع له الاخرون ، فنحن ابناء امة لافرق فيها بين عربي واعجمي الا بالتقوى ،ونحن امة اطلقت اول دعوة في التاريخ لمحاربة الرق والتصدي لكل الدعوات العنصرية .

كيف أذن نواجه ما يحدث ؟ أعتقد أننا لن نواجهه إلا به، أي بواسطة المزيد من الانفتاح عليه والمزيد من استغلال ما يمكن استغلاله منه ، نحن بحاجة إلى إدخال مكتسبات هذه الثورة الإعلامية والتي يصنعها غيرنا

للأسف، في – المدرسة مثلاً – حتى نخرج بها من نظامنا التقليدي الذي ينتج الجهل نحن بحاجة إلى إدخال تقنيات التعليم والوسائل التعليمية كالفيديو والكمبيوتر(soft&hard ware) في التدريس وتطوير المناهج الدراسية حتى تتحول المدرسة إلى مؤسسة تربوية علمية فعلا ..... لا حل إلا بالانفتاح وعلينا ألا نخاف من الانفتاح لأن التطور الحاصل لن يكون إلا في صالحنا ولن يكون إلا ضد ما هو مهيمن في حياتنا الاجتماعية والثقافية وغيرها من أسباب التخلف والركود(٤١).

إن الثورة الاتصالية الفضائيةاتجهت في كل الاتجاهات وأحدثت إنقلابا في كل شيء وألغت المسافات ودخلت في كل بيت بشكل فعال من خلال الصورة الملونة والصوت المجسم والمؤثرات المصاحبة والمختارة بصورة دقيقة .

إن الاندماج الخلاق في هذه الثورة المعاصرة وفي مكتسباتها، مع الاحتفاظ بالخصوصيات والثوابت، لهو أمر ضروري ولا مفر منه .

وعلى أية حال هنالك خيارين أساسيين لصناع القرار وللقائمين على الاتصال في المجتمع العربي، وهما: أما الاستسلام وبلا شروط لهذا التيار والإعصار الثقافي الأمريكي الجارف الذي سيكتسح كل ما سيتعارض أمامه من خصوصيات ثقافية ، واما مواجهة هذا التيار ببناء سدود، بدا من المراجعة والتعامل مع الذات ومروراً بتعزيز دور مؤسسات التنشئة الاجتماعية الدينية والإسلامية، وليس أخيراً في البحث ودن إبطاء في إنشاء وسائل اتصال جماهيرية كأجهزة ضخمة ومؤثرة مسئولة مسئولية اجتماعية تلبي طلبات الجمهور من جهة وتراعي التطورات الحاصلة في مجال التكنولوجيا وبناء الإنسان العربي واعادة ترميم ما تصدع من بنائه باعتبار وسائل الاتصال هي واحدة من أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية في الوقت الراهن .

إن وحدة الخبرات العربية هي السبل لبناء عالم عربي متطور يتم فيه احترام الهويات والخصوصيات ، لان هنالك قوى معرفية وثقافية وإنتاجية جديدة تبرز اليوم في عالمنا العربي المعاصر مترافقة مع التطورات العلمية وبخاصة في مجال الاتصال والمعلومات وهي قوى ستمهد لمرحلة انتقالية ولمستقبل عربي جديد .

إن وحدة الخبرات العربية تعتبر الخطوة الأولى نحو التكيف والتأهيل لمتطلبات ثقافة العولمة . إننا ببساطة بحاجة إلى مزيد من الإرادة الفعالة لاذابة (الذوات)العربية في بوتقة واحدة من أجل إنتاج الذات الواحدة الصلبة مع الانفتاح على كل ما هو قيم وخيرّ في الحضارات المعاصرة .

هوامش البحث

١- نقلاً عن نيكولاي رودنيف، (مجرة غوتنبوغ وفضاء الثقافة الجماهيرية) ، ترجمة حميد الجنابي، مجلة الثقافة الأجنبية، العدد (٣-٤) بغداد، ١٩٩١، ص ٨ .

٢- انظر حول ذلك: تركي الحمد ، (بحثا عن تعريف للعولمة) ، مجلة أبواب ، العدد ٢٨ بيروت ،ربيع ٢٠٠١ . ص.٧ – ٧١ .

٣- نقلا عن قيس جواد العزاوي ، (صراع حضارات أم تعدد ثقافات) ضمن بحوث ندوة مركز دراسات الوحدة العربية ، المستقبل العربي ، بيروت ، العدد ٢ ، ١٩٩٨، ص.٩

٤- حول مخاطر ألا مركة على الثقافات المحلية في العالم، انظر- على وجه الخصوص: على حرب، حديث النهايات: فتوحات العولمة ومأزق الهوية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٠، ص ٢٠ وما بعدها، وعن التحديات التي تواجه العالم العربي والإسلامي. د.حسن حنفي وصادق جلال العظم، ما العولمة، دار الفكر العربي المعاصر، دمشق، ١٩٩٩، ص ٣٤-٥٩.

٥- حسن حنفي وصادق جلال العظم، مرجع سابق ذكره، ص ٥-٥٣.

٦- د.نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات(رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،٢٠٠١ ص ٥٥٠-٥٥١.

٧- يرى دوبريه أن هناك ثلاث مجالات وسائطية هي المجال الكلامي الذي يتوافق مع عصر التعبد والكتابة، والمجال الخطي الذي يغطي عصر الفن(من المطبعة إلى بداية التلفاز)، واليوم مجال الفيديو أو عصر البصري) والبصري هو(التوحيد العالمي للأنظار) وبسبب الفورية التلفازية – البصرية تتحول الصورة من الحالة الصلبة إلى الحالة المائعة فنحن أمام سيلان مستمر، وهكذا تصبح الصورة(البصرية) مجردة من أية مرجعية، ولاتعود ترتبط بأية حقيقة رمزية أو دينية، فتكتسب استقلاليتها وتنفلت من مبدأ الواقعية، انه الحاضر الأزلي للبصري المهووس بالسرعة، حيث في التلفاز كل شيْ بديهي وحاضر دائماً وفوري، للمزيد حول دور التلفاز، انظر: ريجيس دوبرية، محاضرات في علم الأعلام العام((الميديولوجيا) ترجمة د. فؤاد شاهين ود. جورجيت الحداد ، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٦ ص ٥٧

٨- ريجيس دوبريه مرجع سابق ذكره ، ص.٥٧-٥٨.

٩- انظر مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية،(التقرير الاستراتيجي العربي) مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٦٥، وأيضا: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (الخطة الشاملة للثقافة العربية) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٦، ص ١٨٦.

١٠- عبدالله بلقزيز،(الاعلام والأمن الثقافي العربي) مجلة المستقبل العربي، العدد(٢)بيروت ٢٠٠٠ ص٩٥.

١١-هاني شحادة (القرية الكونية في تكنولوجيا المعلومات)،المطرقة وضمن السندان ملف (وجهاً لوجه: العولمة والأسئلة الإنسانية ، البحث عن طريق) الحلقة الأولى، سياسية ٢٠٠٠، دار الروضة للنشر والتوزيع ص ٨١- ٨٦.

١٢-للمزيد حول التحديات التي تمثلها الهيمنة الإعلامية والمعلوماتية الأمريكية بالنسبة للمجموعة الأوربية وفي أوربا الشرقية واسيا وأفريقيا، ناهيك عن الأمريكية الجنوبية باعتبارها البوابة الخلفية للهيمنة الإعلامية الأمريكية انظر على وجه الخصوص، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس ١٩٩٩، ص ١٢ وما بعدها، والسيد ياسين، العولمة والطريق الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٣٨ وما بعدها، وعواطف عبدالرحمن، الأعلام العربي وقضايا العولمة، المركز العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩، ص ١٦-٢٢، وحول المخاطر الأمنية التي تمثلها هذه الهيمنة انظر: د.ابراهيم بن محمد أل عبدالله،(التعليم والأمن في عصر العولمة) مجلة المعرفة، العدد(٥٣)، الرياض، ٢٠٠١، ص ١٠٣- ١١٤، وعن الدور الإعلامي الخطير لشبكة(C.NN) في السياسة الدولية، التي وصفتها مادلين اولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة بأنها(العضو السادس في مجلس الأمن الدولي) في إشارة واضحة إلى أن هذه الشبكة لم تعد مجرد وسيلة إعلامية ولكنها أصبحت مصدراً للمعلومة، لان صورها تنبث في أوقات الأزمات في مكاتب التحرير كما في أماكن السلطة، وان مواطني العالم اجمع باتوا ينشدون لهذه الشبكة بشكل آلي وقد باتت قادرة على صياغة رؤية خاصة للعالم تدخل إلى لاوعي المشاهدين الرؤية الأمريكية .أنظر د.غسان العزي(تكنولوجيا الاتصال والأعلام: محركات العولمة وأسياد العالم الجدد) ضمن بحوث ملف وجهاً لوجه: العولمة والأسئلة الإنسانية: البحث عن طريق) مرجع سابق ذكره .ص.٧-٧٥. وأيضا احمد درويش (تحديات العولمة وحتمية التحديث في وسائل الإرسال والتلقي الأدبي) في الأدب العربي والعالمية، المجلس الأعلى للثقافة- القاهرة، ١٩٩٩،ص ٥٦ وما بعدها.

١٣-نبيل دجابي(دور التلفزيون في المجتمع اللبناني) المستقبل العربي، العدد(٦) بيروت ١٩٩٦، ص ٤٦.

١٤-عبدالملك سالمان (العرب وعالم الجنوب وتحديات المستقبل) المستقبل العربي، العدد (١٣) بيروت ١٩٩٧، ص

١٥-معن بشور(النهوض العربي من أين يبدا) المستقبل العربي، العدد(٨) بيروت ١٩٩٧ ص٤٩.

١٦-يؤكد بارت أن أهمية الصورة تنبع من وجود (المعنى الثالث) الذي لا يوجد في نظام اللغة، للمزيد انظر (المعنى الثالث: ملاحظات في بحث صور فوتوغرافية ساكنة من ايزنشتاين) ترجمة، د.عزيز المطلبي الثقافة الأجنبية، العدد(٢) بغداد ١٩٨٩،ص ٢٦-٣٥.

١٧-قارن بشأن خصائص الصورة لدى أهم الباحثين في هذا المجال وهما(ابراهام مولز ومارسيل مارتن) محمد نور الدين أفاية ، الخطاب السينمائي بين الكتابة والتأويل، منشورات عكاظ ، الدار البيضاء

١٩٨٩، ص ٢٥-٢٩، ومارسيل مارتن، اللغة السينمائية، ترجمة سعيد مكاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة،٦٤، ص ١٣-١٥، وكريستيان ميز(لغة السينما) ترجمة محمد علي الكردي، الثقافة الأجنبية، العدد(٦) بغداد،١٩٨٦ ص ٣٢-٣٦.

١٨-انظر جان بودريار، المجتمع الاستهلاكي: دراسة في أساطير النظام الاستهلاكي وتراكيبه تعريب خليل احمد، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩٥ ص١٥٩-١٦١.

١٩-نقلاً عن نور سلمان(مدخل إلى دراسة الشعر الرمزي في الأدب الحديث) أفاق عربية، العدد(٨) بغداد نيسان١٩٨٣، ص ٧٩.

٢٠- جيري ماندر (استبدال الصور البشرية بواسطة التلفزيون) ترجمة كاظم سعد الدين، الثقافة الأجنبية، العدد(٤) بغداد ١٩٩٢، ص ١٤٥-١٤٦.

٢١-انظر ارثر نايت(تحدي التلفزيون) ترجمة سعيد احمد ،الآداب الأجنبية، العدد الرابع، ١٩٩٢، ص ١٢٦.

٢٢- كاميل دارينزو، ادغار ويليس (الكاتب ووسيلة الاتصال) ترجمة جبار حسن، الثقافة الأجنبية، العدد (٤) ١٩٨٩، ص ٢٨.

٢٣- تعني عملية تقديم السياسي كنجم مشهور(تلفازي وسينائي) تضمين شخصيته دلالات خارجية لا علاقة لها بشخصيته الحقيقية ، انظر للمزيد

Tunstall. J, the Media are American, Columbia University Press Newyourk , 1977, P. 81

٢٤-عبدالله بلقزيز (العولمة والهوية الثقافية) المستقبل العربي، العدد(٣) بيروت١٩٩٨ص٩١-٩٩.

٢٥- هادي نعمان الهيتي : الاتصال التلفزيوني الوافد واحتمالات تاثيره السياسي في الوطن العربي ،مجلة المستقبل العربي ،العدد(٣) بيروت ١٩٩٦ ،ص ١٥١ .

٢٦-للمزيد انظر ياسين احمد خلف، (القنوات الفضائية التلفزيونية وأثارها على سلوك الطفل في الوطن العربي) مجلة الفكر التربوي العربي، العدد(٢٤)تموز١٩٩٩،ص٢٦٦.

٢٧-محمود العباسي،(لغتنا وثقافتنا العربية في ظل ثورة المعلومات وتحديات العولمة) صحيفة رسالة جامعة عدن، العدد(٢٩) الصادر في ١٩٩٩/١٢/٣١ ص٥.

٢٨-انظر بول سالم،(الولايات المتحدة الأمريكية والعولمة) المستقبل العربي، العدد(٣)بيروت ١٩٩٨،ص٨٦-٨٧.

٢٩-(المنهجية المعاصرة والفكر الإسلامي) ترجمة هاشم صالح، الفكر العربي المعاصر، العدد(٣٢)بيروت تشرين الاول١٩٨٤، ص ٣٦ وحول أزمة التواصل مع التراث بالنسبة للشباب العربي انظر للمؤلف نفسه، (من مفهوم الإسلام إلى كيف الكلام عن الإسلام اليوم) الفكر العربي المعاصر العدد(٥٦-٥٧) أيلول تشرين الأول ١٩٨٨،ص٤٩.

٣٠-يشير(جورج لوكاش) إلى أن للرأسمالية عواقب بنيوية قادرة على التأثير في حياة المجتمع بأكمله داخلياً كان أو خارجياً (بتشيؤ) الإنسان، وقد تجاوزت ظاهرة(التشيؤ) البنية الرأسمالية من خلال التشيؤ الذي

تبعته مؤسسات الدولة حيث يصبح المرء هنا وهناك مشيئاً في اعماقه اذ انه لا يعود يتصور إمكانية بلوغه غير الحالة التي يقبع فيها، للمزيد بخصوص مفهوم(التشيؤ) و مرتكزاته الاقتصادية والمفهوم الماركسي للظاهرة، انظر جورج لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة حنا الشاعر، دار الأندلس بيروت، ١٩٧٩ ص٧٩-١٠٢ وأيضا فردريك معتوق(خطاب وسائل الأعلام ومفهوم الحرية) الفكر العربي المعاصر، العدد (٣٢) بيروت، تشرين الاول١٩٨٤ ص ٩٩- ١٠٠.

٣١- فرانك كيلش (ثورة الانفوميديا) ترجمة حسام الدين زكريا،: مجلة عالم المعرفة، العدد(٢٥٣) الكويت كانون الثاني،٢٠٠٠.

٣٢-طالع السعود الأطلسي(الأعلام والأمن الثقافي العربي) المستقبل العربي العدد(٢) بيروت ١٩٩٥.

٣٣-د. نبيل سليم ، (نقيض العولمة نزعة حديثة لرفض الهيمنة)، ضمن ماف : وجها لوجه ، الحلقة الثانية ،سياسيه ٢٠٠٠ ، دار الروضة للنشر والتوزيع ، ص٦٤- ٦٧ .

٣٤- د. نبيل علي ، مصدر سابق ذكره ، ص ٨٦

٣٥-(الاعلام العربي ، رؤية من الداخل)، صحيفة ١٤ اكتوبر ، عدن ، العدد الصادر في ٢٠٠١/٦/٢٤ ،ص٣ .المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في الجامعة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٧ ، ص ٣٤ وما بعدها .

٣٦-انظر للمزيد د. نبيل علي مصدر سابق ذكره ص ٣٦٠ .

٣٧-صحيفة الوطن العُمانية ، عُمان ، العدد الصادر في ١٤ / ابريل / ٢٠٠١ ، ص٢٠ .

٣٨-د. نبيل سليم ، مصدر سابق ذكره ، ص ٦٥

٣٩-انظر حول عمل القنوات الفضائية العربية الموجهة الىالجمهور الاجنبي: خالد الروسان ، (عرب القرن الحادي والعشرين وخيارات العولمة) ،صحيفة ١٤ اكتوبر ، عدن ، العدد الصادر في ٢٠٠١/٤/١٦ ، ص ، ٩ و المصدر نفسه ،العدد الصادرفي ٢٠٠١/٥/٢٤، ص ١٢ .

٤٠-طالع السعود الاطلسي (الاعلام والامن الثقافي العربي) مصدر سابق .